

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم . قال الإمام رحمه الله وغفر له وللشارح وللسامعين :

[باب قول الله تعالى : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ - إِلَى قَوْلِهِ - وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾]
 عمران: ٦٥-٦٧ وقوله: ﴿ وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [البقرة: ١٣٠] .

الشرح :

قال المصنف رحمه الله : باب قول الله تعالى ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (٦٥) هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٦٦) مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٦٧) إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ؛ جعل المصنف - رحمه الله - هذا السياق العظيم المبارك من سورة آل عمران عنواناً لهذه الترجمة التي أراد من خلالها أن يبين أن حقيقة الإسلام ونيل فضائله العظام لا يكون بالانتساب المجرد ؛ وإنما لابد مع ذلك من وجود حقيقة الإسلام ، والاستسلام لله ﷻ ، ولزوم نهج الأنبياء ، وتحقيق التوحيد الذي دعوا إليه ، وأن لا يرغب الإنسان عن شيء منه ، أما مجرد الدعوى فإنها لا تكفي ، فكم من أناس يدعون أشياء وهم في الحقيقة أدياء ،

الدعاوى مالم يُقَمَّ عليها بيّنات فأصحابها أدياء .

فالدعاوى كثيرة وادّعاء الإنسان ما ليس فيه كثير : كأن يدّعي لنفسه أنه من الأتقياء ، أو يدّعي لنفسه أنه من الصالحين ، أو يدّعي لنفسه أنه من المحسنين ، أو نحو ذلك ، أمر الدعوى يسير على كل لسان وسهل على كل إنسان لكن ذلك لا عبرة به ، العبرة في حقيقة الاستسلام لله ﷻ . فالمصنف - رحمه الله - أراد أن يبين هذا الأمر وأن فضل الإسلام وفضائله العظام لا ينالها أحد بمجرد ادّعاءه بل لابد من معرفة الإسلام ولزومه والاستمسك به وعدم الرغبة عنه ، فمن كان كذلك فهو الذي ينال فضائل الإسلام وخيراته .

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ إلى آخر السياق المبارك ، هذا سياق جاء في الرد على اليهود والنصارى في دعوى مجردة ادّعوها ؛ اليهود ادّعت أن إبراهيم ما كان إلا يهودياً ، والنصارى ادّعت أن إبراهيم ما كان إلا نصرانياً ، ومعنى ذلك أنهم يدعون لأنفسهم أنه معهم وأنهم معه ، وأنه منهم وأنهم منه .

وقد ذكر بعض أهل العلم^(١) أن للآية سبب نزول وهو : أن أحباراً من اليهود وجماعة من نصارى نجران تجادلوا عند النبي - عليه الصلاة والسلام - فقال أحبار اليهود ما كان إبراهيم إلا يهودياً ، وقالت النصارى ما كان إبراهيم إلا نصرانياً فأنزل الله - تبارك وتعالى - هذه الآيات الكريمات ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ ؛ أي أليس لكم عقول !!

والله ﷻ أبطل دعوى هاتين الطائفتين أن إبراهيم منهم بعدة أمور بُيِّنَتْ في هذا السياق العظيم المبارك :

■ الأمر الأول : أن ادّعاءهم هذا مبني على خوضٍ منهم فيما ليس لهم به علم ؛ قال ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (٦٥) هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ

(١) انظر تفسير ابن كثير والألوسي (تفسير سورة آل عمران: ٦٥) .

حَاجَبْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ ﴿١﴾ ؛ فهذا رد على هؤلاء أن خوضهم في هذا الأمر خوض في أمر لا علم لهم به ، ولو أن خوضهم وجدالهم هذا في أمر لهم به علم مما أنزل عليهم في التوراة بيانه من أحكام الحلال والحرام لقبل ذلك ، لكن هذه محاجة في أمر لا علم لهم به ، وهذا باطل ومحرم . وقد استفيد من هذه الآية : تحريم خوض الإنسان ما ليس له به علم ، قال تعالى : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ [الإسراء: ٣٦] ، وقال تعالى : ﴿ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٣] .

■ الوجه الثاني في الرد على هؤلاء وإبطال دعواهم من الناحية التاريخية ؛ فالله ﷻ يقول : ﴿ وَمَا أَنْزَلَتِ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ ﴾ ؛ ولهذا نبه بعض علماء التفسير أن من فوائد هذه الآية : أهمية العناية بالتاريخ في باب الرد على دعاوى أهل الباطل ، فهنا أبطلت دعوى هؤلاء من ناحية تاريخية ؛ اليهود يقولون أن إبراهيم عليه السلام يهودياً ، والنصارى يقولون إبراهيم عليه السلام نصرانياً ، والتوراة التي أنزلت عليهم والإنجيل الذي أنزل على النصارى ما وجدت وما أنزلت إلا بعد إبراهيم ؛ فكيف يكون إبراهيم يهودياً وكيف يكون نصرانياً والتي أنزلت على موسى والإنجيل الذي أنزل على عيسى لم يكن إلا بعد إبراهيم بزمان ؟! فهذه إبطال لهذه الدعوى من الناحية التاريخية .

■ الوجه الثالث في إبطال دعوى هؤلاء : تبرئة إبراهيم عليه السلام من هؤلاء ومما هم عليه ﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا ﴾ ؛ هذه تبرئة له من هؤلاء ، ﴿ وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ ؛ وهذا أيضا فيه تعريض ببيان حال هؤلاء وما هم عليه من الشرك والكفر بالله ﷻ وأن إبراهيم عليه السلام براء من ذلك كله فهو حنيف : أي مائل متجانب عن الشرك وعن الباطل وعن أنواع الضلال إلى الإخلاص لله وتوحيده والاستسلام له وامتنال أمره ﷻ ، هذا شأن إبراهيم عليه السلام ﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا ﴾ ؛ ليس على ما عليه اليهود ولا على ما عليه النصارى ؛ بل

كانت ملته ودينه الحنيفية ، قال تعالى في آية أخرى ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الحج: ٧٨] ، الحنيفية هي ملة إبراهيم ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا﴾ [النحل: ١٢٠] ؛ فهذه ملة إبراهيم البعد عن الشرك ﴿وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا﴾ حنيفاً : أي مائلاً عن الشرك وعن كل باطل . ومسلماً : أي مستسليماً لله منقاداً له ﴿وَسَيَأْتِي قَوْلُ اللَّهِ ﷻ﴾ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمَ قَالَ أَسْلَمْتُ ﴿؛ فهذا شأن إبراهيم الخليل ﷺ : إسلام لله واستسلام لأمره - تبارك وتعالى - .

إذن هذا السياق العظيم المبارك أفاد أن مجرد الدعوى لا تكفي ، الآن كما نرى ؛ اليهود ادّعوا أن إبراهيم منهم ، والنصارى ادّعوا أن إبراهيم منهم ؛ وهذا يعني أنهم أتباعه وعلى ملته ، وأولئك أيضاً يدّعون أنهم أتباعه وعلى ملته ، وكذلك المشركون يدّعون لأنفسهم أنهم على ملة إبراهيم ، وكل هذه دعاوى لا قيمة لها ولا تفيد الإنسان ، فعلم من ذلك أن مجرد الدعوى لا تكفي ؛ وإلا أمر الدعوى سهل ؛ ادّعى اليهود لأنفسهم قالوا : ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ [المائدة: ١٨] ، وأيضاً تخاصموا هم والنصارى في ادعاءات قالوا : ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ [البقرة: ١١١] ؛ أمر الدعوى سهل ، سهل أن يحرك الإنسان طرف لسانه بادعاءات وزعم كاذب ولكن كل ذلك لا قيمة له ، لا بد من وجود حقيقة الإسلام والاستسلام لله ﷻ ، ولهذا الله ﷻ لما كشف زيف الدعوى وأوضح بطلانها قال عقب ذلك : ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ﴾ ؛ لاحظ كلمة ﴿لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ﴾ ؛ أما مجرد الدعوى هذا لا قيمة له . ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ﴾ ولو كان من الناس من هو أقرب الناس إليه ولم يتبعه ليس من إبراهيم وإبراهيم ليس منه ، ولهذا تبرأ إبراهيم من أبيه ومن قومه ؛ مع أن أبا إبراهيم أقرب الناس إليه نسباً تبرأ منه ، لأن الأمر يعود إلى وجود حقيقة الإسلام والإتباع .

﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ﴾ ؛ هؤلاء هم أولى الناس به .

﴿ وَهَذَا النَّبِيُّ ﴾ : أي محمد ﷺ الذي بُعث بالحنيفية السمحة ملة إبراهيم ﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا ﴾ [الحج: ٧٨] فملة إبراهيم هي ملة محمد ﷺ وهو على ملته ويدعو إلى ملته - صلوات الله وسلامه عليه - .

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا ﴾ : أي معه مع محمد ﷺ .

فإذا أولى الناس بإبراهيم : هم أتباعه الذين آمنوا به وصدّقه وساروا على نهجه ، وكذلك نبينا ﷺ ، وأتباع نبينا ﷺ ، أما المشركون واليهود والنصارى وغيرهم من أرباب الديانات وإن ادّعوا أن إبراهيم منهم أو أنهم منه فهذه دعوى زائفة وكلام كاذب ليس هناك واقع يصدقه ، بل الواقع على نقيض ذلك وعلى خلافه ؛ إبراهيم له نهج وهؤلاء لهم نهج آخر ، والله ﷻ يقول : ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ [آل عمران: ٣١] ، ﴿ فَاتَّبِعُونِي ﴾ : أي أن مجرد الدعوى لا تكفي .

قال : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ ؛ قوله هنا في هذا السياق ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ دليل واضح على أن أصحاب الدعاوى الزائفة لا عقل لهم ، أي أن من يقول عن نفسه أنه على ملة إبراهيم وهو على الشرك بالله ﷻ ، أو يقول أنا على ملة محمد ﷺ وهو لا يلزم نهجه بل على البدع والخرافات ؛ هذا دليل على عدم العقل ؛ لأن قوله " إنني على ملته " هذا يدل على قناعة عنده بأن ملته هي الملة المرتضاة وهي الملة المقبولة ولهذا انتسب ، ولولا وجود هذه القناعة لم ينتسب ، ثم مع وجود هذا الانتساب المدعى يناقض أعماله ويمارس في واقعه العملي أعمالاً على نقيض ما كان عليه إبراهيم وما كان عليه الأنبياء عموماً - عليهم صلوات الله وسلامه - من التوحيد والاستسلام لله ﷻ !! هذا دليل على فقدان العقل ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ .

إذاً هذا يفيدنا أن أرباب هذه الدعاوى الباطلة لا عقول لهم ، وإلا لو كان عندهم عقول راجحة لأتبعوا الدعوى ببرهانها وبما يصدقها من الاتباع لنهج الأنبياء - عليهم صلوات الله وسلامه - .

قال ﴿ هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ؛ حاججتم في أمور لكم بها علم أي مما وجد تبيانه في التوراة والإنجيل من الأحكام والأوامر ونحو ذلك ، فلم هذا الخوض والمجادلة في أمر ليس لكم به علم وهو خوضكم في إبراهيم عليه السلام وادّعاء كل طرف منكم أن إبراهيم على ما هو عليه ؛ فاليهود يقولون منا والنصارى يقولون منا ، فهذا خوض بلا علم وهو من أعظم الآثام ومن المحرمات العظام ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ .

ثم برأ الله ﷻ نبيه إبراهيم عليه السلام من ذلك ومما عليه هؤلاء قال : ﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا ﴾ ؛ ليس على ما ادّعاه النصارى ولا على ما ادّعاه اليهود بل كان حنيفاً مسلماً ﴿ وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ ؛ هذه ملة إبراهيم الخليل - عليه صلوات الله وسلامه - قائمة على أمرين : ١ - الحنيفية : تعني ترك الشرك .

٢ - الإسلام : يعني الاستلام لله بما شرع والخضوع له تبارك وتعالى بما أمر .

ثم قال : ﴿ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ ﴾ ؛ لما زيف دعوى أولئك وبين بطلانها من وجوه بين من هم الذين هم أولى الناس بإبراهيم عليه السلام ، فذكر أن أولى الناس بإبراهيم : أتباعه السائرون على نهجه ، والنبي محمد ﷺ فهو على ملة إبراهيم حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين ، وكذلك أتباع نبينا محمد ﷺ ؛ قال ﴿ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا ﴾ ، ثم قال ﴿ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

وتأمل ختم الآية بهذه الخاتمة العظيمة : ﴿ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ؛ أي الله ﷻ يتولاهم حفظاً وتأيداً ونصراً وعوناً ، أما من سواهم فليس لهم حظ من ذلك ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ

إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿البقرة: ٢٥٧﴾ .

إذاً هذا السياق المبارك المراد من إيراد المصنف له : أن يبين أن حقيقة الإسلام لا تكون بالانتماء المجرد ؛ بل لابد من لزوم نهج الأنبياء ، والاستسلام لله ، وإخلاص الدين له ، والقيام بتوحيده وبشرعه كما أمر - تبارك وتعالى - فهذا هو الإسلام الذي به تنال فضائل الإسلام العظيمة .

ثم قال : ((وقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾)) .

﴿ وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ ﴾ : أي يميل عنها ويعدل عنها ويبتغي غيرها ويطلب غيرها .
الرغبة تكون في الشيء وعن الشيء ؛ رغب فيه : أي طلبه وحرص عليه واجتهد في تحصيله ،
ورغب عنه : أي عدل عنه ومال عنه إلى غيره وتركه وتخلّى عنه .

قال ﴿ وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ ﴾ ؛ وملة إبراهيم هي الحنيفية السمحة وهي البراءة من الشرك ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ ؛ ملته الحنيفية السمحة ، ملته البراءة من الشرك صغيره وكبيره ، ملته الإسلام والاستسلام لله تبارك وتعالى ، فمن رغب عن هذه الملة فقد ﴿ سَفِهَ نَفْسَهُ ﴾ ، ومعنى ﴿ سَفِهَ نَفْسَهُ ﴾ : أي حكم على نفسه بالسَّفَه ، والسفَه : هو خفة العقل ، والسفيه هو خفيف العقل ؛ عقله خفيف : أي ليس عنده عقل راجح وعقل متزن بل في عقله خفة .

﴿ وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ ﴾ : أي إلا من حكم على نفسه ورضي لنفسه بسفَه العقل ، وهذا مثل قوله قبل قليل ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ ؛ هذا كله من السفه ومن عدم العقل أن يمضي الإنسان في دعاوي مجردة بلا حقيقة ولا برهان وتكون حقيقة الإنسان الرغبة عن ملة إبراهيم التي هي ملة جميع الأنبياء وهي التوحيد والاستسلام لله ﷻ ، في السياق الأول قال ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ ،

وفي هذا السياق قال ﴿ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ ﴾ . ومفهوم المخالفة يدل على أن من رغب في ملة إبراهيم وحرص عليها وجدّ واجتهد في تحقيقها وتتميمها فهذا يدل على رجاحة العقل وورزاقته .

قال ﴿ وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ ﴾ ثم بين الملة التي كان عليها إبراهيم وأنه عبد الله المجتبي ورسوله المصطفى قال ﴿ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا ﴾ اصطفاه الله أي اجتباه ليكون عبداً مقرباً ونبيّاً مرسلًا ، بل هو من خيار الأنبياء ومن أولي العزم من الرسل - صلوات الله وسلامه عليه - .

قال ﴿ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ ﴾ أي اجتبيناه .

﴿ فِي الدُّنْيَا ﴾ ؛ اجتباه في الدنيا فكان من صفوة عباد الله واختاره - تبارك وتعالى - ليكون رسولاً يبلغ الناس دين الله بشيراً ونذيراً ، فقام بما أمر به وافيّاً على التمام والكمال ، فما ترك خيراً إلا دل أمته عليه ولا شراً إلا حذرها منه - صلوات الله وسلامه عليه - .

قال ﴿ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ ؛ أي أهل المنازل العالية والدرجات الرفيعة في جنات النعيم . فهذا شأن إبراهيم الخليل عليه السلام .

ثم قال - جل وعلا - ممتدحاً له ﴿ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ؛ أي استسلمت وانقدت لله ممثلاً أمره منقاداً لشرعه مذعناً بطواعية وبدون تردد ، ما أن قال له ربه ﴿ أَسْلِمْ ﴾ إلا وأعلن إسلامه واستسلامه .

فهذه ملة إبراهيم الملة الحنيفية ، وهي الملة التي وصى بها إبراهيم ذريته وأتباعه ، وبها أيضاً وصى الأنبياء ، ولا يكون الإنسان من أهلها إلا بلزومها . وهذا هو المقصود من هذا الباب .

قال رحمه الله تعالى :

[وفيه حديث الخوارج وقد تقدم] .

الشرح :

قال ((وفيه حديث الخوارج وقد تقدم)) ؛ يشير - رحمه الله - إلى قول النبي ﷺ في الخوارج ((يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ ثُمَّ لَا يَعُودُونَ))^(٢) وكان قبل هذا وصف عبادتهم قال ((تَحْقِرُونَ صَلَاتَكُمْ مَعَ صَلَاتِهِمْ وَصِيَامَكُمْ مَعَ صِيَامِهِمْ وَعَمَلَكُمْ مَعَ عَمَلِهِمْ وَيَقْرَأُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ))^(٣) ، لاحظ هذه الأمور التي اتصف بها الخوارج على ضوء ما دل عليه هذا الحديث : الخوارج قوم يصلّون ويقرؤون القرآن ، وصلاتهم فيها اجتهاد وقراءتهم للقرآن فيها اجتهاد أيضا ؛ إذا هم قوم ينتسبون إلى الإسلام ويتسبون لهذا الدين ويجتهدون في الصلاة والمحافظة عليها ويجتهدون في قراءة القرآن ومداومة القراءة والإكثار من قراءته كل ذلك يفعلونه ولكن وصفهم النبي مع ذلك كله بقوله ((يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ)) والسهم معروف إذا أطلق وصوّب نحو رمية معينة ثم خرج من طرفها الآخر فلا يبقى ولا يستقر وإنما دخول وخروج ومرور ، وقد وصفهم - عليه الصلاة والسلام - بأنهم يصلّون ويجتهدون في قراءة القرآن بل قال مخاطبا الصحابة ((تحقرون صلاتكم مع صلاتهم وقراءتكم مع قراءتهم)) أي للقرآن الكريم ، ومع ذلك قال ((يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ)) لماذا ؟ هنا سر وسبب هو أساس الموضوع ؛ وهو أنهم لم يجعلوا كتاب الله وسنة نبيه ﷺ حاكما عليهم ؛ مع أنهم رفعوا شعار لا حُكم إلا لله ورفعوا المصحف ويصلّون ويقرؤون القرآن باجتهاد

(٢) رواه البخاري (٧٥٦٢) ، وابن ماجه (١٧٠) .

(٣) رواه البخاري (٥٠٥٨) ، وابن ماجه (١٧٠) .

ومع ذلك كله قال النبي ﷺ ((يَمُرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمُرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ)) والسبب في ذلك : أنه لم يكن العلم المستمد من الكتاب والسنة هو المحكم وإنما حكموا أهواءهم ، ولهذا لما ناظرهم ابن عباس بالقرآن واحتج عليهم بالقرآن رجع منهم أربعة آلاف لوضوح الأمر ، الأمر واضح والدلائل بينة ليس معهم حجة ولا برهان وإنما الذي معهم هو الأهواء ، يحكمون أحكاماً بأهوائهم لا دليل عليها من كتاب الله ولا دليل عليها من سنة رسول الله ﷺ وإنما يمارسون أنواعاً من الظلم والبغي والعدوان والجور وإراقة الدماء والاعتداء على الأموال إلى غير ذلك من الأمور يفعلونها تديناً ويزعمون أنهم فيها على بينة من كتاب الله وسنة نبيه ﷺ ، وكل ذلك ادعاء ، ومن كتب الله ﷻ له الهداية منهم عرفها من كتاب الله وسنة نبيه - عليه الصلاة والسلام - لما بُيِّنَتْ لهم بالدليل الواضح من كتاب الله وسنة نبيه ﷺ ، ولهذا قال المصنف هنا ((وفيه حديث الخوارج وقد تقدم)) ؛ الخوارج شأنهم كما تقدم أهل صلاة وأهل قراءة للقرآن وأهل انتساب للإسلام ومع ذلك قال فيهم رسول الله ﷺ ((يَمُرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمُرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ)) .

ويأتي هنا السؤال الذي يتضح به مراد المصنف من إيراد حديث الخوارج وهو : الخوارج لم ينتسبوا لا إلى اليهودية ولا إلى النصرانية ولا إلى ملة أخرى وإنما هم منتسبون إلى الإسلام فقط ويصلون ويجتهدون في قراءة القرآن ويكثرون من ذكر الله ﷻ ، ولما سُئِلَ علي عليه السلام عنهم قيل له أمناقون هم ؟ قال : المنافقون لا يذكرون الله إلا قليلاً وهؤلاء يذكرون الله كثيراً ، فإذا لماذا وصفهم النبي عليه الصلاة والسلام بقوله ((يَمُرُقُونَ مِنَ الدِّينِ)) ؟

يأتيك الجواب وهو : أن مجرد الانتساب للدين والصلاة وقراءة القرآن وحدها لا تكفي ، لابد من وجود حقيقة الإسلام وهو الاستسلام لله بالتوحيد والانقياد له بالطاعة ؛ أن يكون في عبادته موحداً مخلصاً ، وأن يكون لحكم الله وأمره وشرعه منقاداً مستسلماً . أما الذي يجعل هواه هو الحاكم على شرع الله ﷻ فأين الاستسلام ؟ وأيضا من لا يخلص العبادة لله ﷻ أين الإسلام وأين

الاستسلام ؟ وهذا أمر سبقت الإشارة إليه ؛ من استكبر عن عبادة الله وطاعته أين إسلامه ؟ ومن جعل لله شريكاً معه في العبادة أين إسلامه ؟ فلا يكون الإسلام إلا بالإخلاص للمعبود ﷻ ، والاستسلام له بالطاعة ، وتحكيم شرعه ، والانقياد لحكمه ﷻ .

قال رحمه الله

[وفي الصحيح أنه ﷺ قال : ((إن آل أبي فلان ليسوا لي بأولياء إنما أوليائي المتقون)) ^(٤)] .

الشرح :

ثم أورد - رحمه الله - هذا الحديث أيضاً ليبين هذا الأمر ، وأن مجرد قرابة الإنسان من النبي ﷺ أو نحو ذلك لا يكفي ، قال - عليه الصلاة والسلام - : ((إن آل أبي فلان ليسوا لي بأولياء إنما أوليائي المتقون)) ؛ آل أبي فلان يشير النبي ﷺ إلى بعض من لهم به صلة من قرابة ، فيقول ((إن آل أبي فلان ليسوا لي بأولياء)) لأنه لم يوجد فيهم حقيقة الإسلام ولم يوجد فيهم التوحيد لله ﷻ ، فقرابة الإنسان بنسبه من النبي - عليه الصلاة والسلام - لا تفيدُهُ ﴿ فَإِذَا نَفَخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴾ [المؤمنون: ١٠١] ، ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٣] ، فالعبرة بتحقيق التقوى لله تبارك وتعالى ولهذا قال : ((إن آل أبي فلان ليسوا لي بأولياء)) من الولاية - بفتح الواو وليس بالكسر - وهي المحبة ؛ أي ليسوا من أحبتي ، ليسوا من أهلي ، ليسوا من ولايتي أي ممن أحبهم .

إذاً من هم أوليائه ؟ قال ((المتقون)) ؛ أي الله ﷻ ، فمن كان مؤمناً تقياً كان لله ولياً .

(٤) رواه البخاري (٥٩٩٠) بلفظ ((إِنَّ آلَ أَبِي قَالَ عَمْرُو فِي كِتَابِ مُحَمَّدِ بْنِ جَعْفَرٍ بَيَّاضَ لَيْسُوا بِأَوْلِيَائِي إِنَّمَا وَلِيِّيَ اللَّهُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ)) ، ومسلم (٢١٥) بلفظ ((أَلَا إِنَّ آلَ أَبِي يَعْنِي فَلَانًا لَيْسُوا لِي بِأَوْلِيَاءَ إِنَّمَا وَلِيِّيَ اللَّهُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ)) .

بالإيمان والتقوى تُنال الولاية ؛ لا بمجرد الادعاء ولا بمجرد أيضا صلة القرابة ، ولهذا الشرك أبعد أبا لهب مع أنه عم النبي - عليه الصلاة والسلام - أخو والده ، ونزل في ذلك وحى يتلى ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (٢) سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (٣) وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (٤) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴾ [سورة المسد] ، وقرب الإسلام سلمان الفارسي وصهيب الرومي وبلا لا وهم من الموالي . فالذي يقرب هو الإسلام والذي يبعد هو الكفر وعدم الاستسلام .

قال - عليه الصلاة والسلام - ((إن آل أبي فلان ليسوا لي بأولياء إنما أوليائي المتقون)) ؛ الحديث يدل على أن الادعاء لا يكفي ؛ لابد من تحقيق التقوى الله ﷻ ، وتقوى الله أحسن ما عرفت به ؛ قول أحد التابعين^(٥) : "هي العمل بطاعة الله على نور من الله رجاء ثواب الله ، وترك معصية الله على نور من الله خيفة عذاب الله" فهذه حقيقة التقوى .

في معنى قول النبي ﷺ ((إن آل أبي فلان ليسوا لي بأولياء إنما أوليائي المتقون)) يقول أحدهم نظماً وقد أورده ابن رجب - رحمه الله - في كتابه جامع العلوم والحكم :

لَعَمْرُكَ مَا الْإِنْسَانُ إِلَّا بَدِينِهِ فَلَا تَتْرُكِ التَّقْوَى اتِّكَالاً عَلَى النَّسَبِ
لَقَدْ رَفَعَ الْإِسْلَامُ سَلْمَانَ فَارِسَ وَقَدْ وَضَعَ الشَّرْكَ الشَّقِيَّ أَبَا لَهَبٍ

(٥) وهو طلق بن حبيب كما رواه عنه ابن المبارك في كتابه الزهد والرقائق ، والبيهقي في الزهد الكبير ، وأبو نعيم في الحلية .

قال رحمه الله :

[وفيه أيضا عن أنس : أن رسول الله ﷺ ذكر له أن بعض الصحابة قال : أما أنا فلا أكل اللحم ، وقال آخر : أما أنا فأقوم ولا أنام ، وقال آخر : أما أنا فلا أتزوج النساء ، وقال آخر : أما أنا فأصوم ولا أفطر فقال ﷺ : ((لكنني أقوم وأنام وأصوم وأفطر وأتزوج النساء وأكل اللحم فمن رغب عن سنتي فليس مني))^(٦) . فتأمل إذا كان بعض الصحابة أراد التبتل للعبادة قيل فيه هذا الكلام الغليظ وسُمِّي فعله رُغوباً عن السنة فما ظنك بغير هذا من البدع وما ظنك بغير الصحابة ؟] .

الشرح :

قال - رحمه الله - : ((وفيه أيضا عن أنس أن رسول الله ﷺ ذكر له أن بعض الصحابة قال : أما أنا فلا أكل اللحم ، وقال آخر : أما أنا فأقوم ولا أنام ، وقال آخر : أما أنا فلا أتزوج النساء ، وقال آخر : أما أنا فأصوم ولا أفطر)) ؛ هؤلاء نفر من أهل الاجتهاد والحرص على العبادة والتدين جاءوا وسألوا في بيت النبي ﷺ عن عبادته ، عن صلاته ، عن قيامه ليل ، عن صيامه ؛ فوجدوا أنه ﷺ متزوج وله أكثر من زوجة ، والزواج والصلة بالزوجة له متطلبات و ((خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي))^(٧) ، ووجدوا أيضا أنه يأخذ حظه من نوم الليل ؛ ينام حظاً من الليل ويقوم حظاً منه ، وأيضا ليس كل وقته في صلاة بل يصلي ويقوم بأعمال أخرى في أوقات أخرى ، وجدوا عبادته بهذه الصفة فتقالوها ورأوا أنها أقل من المطلوب ؛ قالوا هذا قليل !! تقالوا عبادة من ؟

(٦) رواه البخاري (٥٠٦٣) بلفظ ((لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ وَأُصَلِّي وَأَزْفُدُ وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ فَمَنْ رَغِبَ عَن سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي)) ، ومسلم (١٤٠١) بلفظ

((لَكِنِّي أَصَلِّي وَأَنَا مُ وَأَصُومُ وَأُفْطِرُ وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ فَمَنْ رَغِبَ عَن سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي)) .

(٧) رواه الترمذي (٣٨٩٥) ، وابن ماجه (١٩٧٧) .

أفضل عباد الله ﷺ !! ليس في عباد الله أفضل عبادة منه - عليه الصلاة والسلام - ثم نشأ عندهم مخالفة .

لاحظ هنا متى تنشأ المخالفة عند الإنسان ؟ عندما يوجد فيه شيء من الرغبة عن السنة . والرغبة عن السنة لها أسباب ومولدات ، ومن مولداتها : أن يرى الإنسان في السنة ما لا يكفي ، انظر هذا على سبيل المثال فيمن يجتهدون في الأذكار المحدثثة تجد أحدهم في يده سبحة فيها ألف خرزة ولا نعرف في الأذكار الشرعية ما يعد ألف مرة ، وتجدده يعد أشياء بالآلاف بسبحته تضبط له هذا العدد ، وفي الوقت نفسه سنن صحيحة ثابتة عن النبي - عليه الصلاة والسلام - في ذكر الله هو من أجهل الناس بها !! فيجتهد فيما ليس مشروع ويدع المشروع ، ولو ذكرت له المشروع مثلاً من أذكار الصباح والمساء يقول : " هذا قليل ؛ نحن نشتغل من بعد صلاة الفجر إلى الساعة العاشرة بالآلاف ، هذه ما تكفي قليلة " ، فتجدده يرغب عن السنة ولا يراها كافية ويراها قليلة ويشغل بما ليس بسنة وبأمر ليس مشروع ، ولا دليل عليه ، ولو كان يذكر الله الذكر المطلق لا إشكال في ذلك ، فالإنسان مطلوب منه أن يجتهد في التسبيح في كل أوقاته وجميع أحيائه ، لكن هذا التقييد وبأعداد معينة هذا أمر لا دليل على مشروعيته من هدي النبي - عليه الصلاة والسلام - وسنته .

فهؤلاء تقالوا عبادته ﷺ ، ولما تقالوا العبادة ألزم كل واحد نفسه باجتهد في أمر لا دليل على مشروعيته ، ((فقال أحدهم : أما أنا فلا أكل اللحم)) ؛ يعني من الآن والوقت القادم لن أكل لحماً ، والنبي ﷺ يأكل اللحم وكان يحب - عليه الصلاة والسلام - الذراع أو الكتف ويأكله ﷺ .

((وقال الآخر : أما أنا فأقوم ولا أنام)) ؛ يعني الليل كله لا أنام ، أظل قائماً أصلي .

((وقال الآخر أما أنا فلا أتزوج النساء)) ؛ كأنه بزعمه أن الزواج يشغل عن الصلاة وعن العبادة .

((وقال الآخر أما أنا فأصوم ولا أفطر)) يعني أمضي أيامي كلها صائماً لا أفطر .

فسمع النبي - عليه الصلاة والسلام - بكلام هؤلاء فقال : ((لكنني أقوم وأنام ، وأصوم وأفطر ، وأتزوج النساء ، وأكل اللحم)) ؛ يعني كل هذه الأشياء التي قالوها هي على خلاف هديي وعلى خلاف سنتي ؛ أنا أقوم وأنام ، وأصوم وأفطر ، وأتزوج النساء ، وأكل اللحم كل هذه الأمور أفعلها . ((فمن رغب عن سنتي فليس مني)) الآن لاحظ ملاحظة مهمة في الموضوع ؛ هؤلاء الذين فعلوا هذه الأمور فعلوها تدينًا وتقربًا واجتهادًا في التقرب إلى الله ﷻ وطلب ثوابه ومع ذلك يقول ﷺ ((إني أقوم وأنام ، وأصوم وأفطر ، وأتزوج النساء ، وأكل اللحم ؛ فمن رغب عن سنتي فليس مني)) يعني هذه سنتي فمن رغب عنها فليس مني .

الآن أكل اللحم ؛ لو أن إنسانًا نُصح أن لا يأكل اللحم ، قيل له إن معك المرض الفلاني واللحم يضرّك فترك أكل اللحم لهذا الغرض ، أو لو أن إنسانًا قال والله أنا ما أكل لحم لأنني لا أشتهيه ولا أحب أكله ونفسي ما ترغبه أجدي أعافه ، النبي ﷺ امتنع من أكل لحم الضب مع أنه مباح قال ((أجِدُنِي أَعَافُهُ))^(٨) . فامتناع الإنسان من أكل اللحم خوفًا على صحته لمرض معه أو لأن نفسه لا تقبله أو نحو ذلك هذا لا يؤثر على تدينه وعلى إتباعه للسنة ، لكن هذا الذي قال ((أنا لا أكل اللحم)) فعل ذلك على وجه التدين يريد أن يتقرب إلى الله ﷻ بترك أكل اللحم ، فهذا تقرب إلى الله ﷻ بما لم يشرع ، فالتدين والتقرب إلى الله بما شرع ولهذا قال النبي - عليه الصلاة والسلام - ((وأكل اللحم فمن رغب عن سنتي فليس مني)) .

وذكر أنه يتزوج النساء أيضًا ؛ من ترك الزواج مثلاً لفقره أو لا إربة له في النساء أو لسبب آخر هذا لا يضره ، لكن لو ترك الزواج يتدين بذلك ويرى أن هذه من القربات ومن العبادات ومن الأعمال الصالحات التي يتقرب بها إلى الله ﷻ فهذا ليس على سنة النبي - عليه الصلاة والسلام - .

(٨) رواه البخاري (٥٣٩١) ، ومسلم (١٩٤٥) ، والنسائي (٤٣٢١) ، وابن ماجه (٣٢٤١) .

وكذلك من يُلزم نفسه بإلزام هؤلاء يصلي ولا ينام ، ويصوم ولا يفطر فهؤلاء كلهم ليسوا على سنة النبي ﷺ .

لاحظ في حق من صلى وصام واجتهد في الصلاة والصيام ومع ذلك سمى النبي ﷺ هذا الاجتهاد في الصلاة والصيام رغبة عن السنة !! إذاً لا يكفي مجرد الانتساب أو مجرد الصلاة والصيام؛ بل لابد من وجود حقيقة الاستسلام والاتباع والاهتداء بهدي الرسول الكريم - عليه الصلاة والسلام .

قال ((ولكني أقوم وأنام وأصوم وأفطر وأتزوج النساء وأكل اللحم فمن رغب عن سنتي فليس مني)) قارن قوله ((فمن رغب عن سنتي)) بقوله قريباً ﴿ وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ ﴾ فالرغبة عن ملة إبراهيم عليه السلام والرغبة عن سنة النبي الكريم ﷺ لا يؤدي بالإنسان إلا إلى الهلكة والخسران ، والذي يجب على المسلم أن تقوم فيه رغبة في ملة إبراهيم ورغبة في سنة نبينا الكريم - عليه الصلاة والسلام - حفظاً لها ومحافظةً عليها وعنايةً بها واجتهاداً في تعلمها والعمل بها ليكون من أهل سنته وليكون من أهل ملة إبراهيم الخليل - عليه وعلى نبينا وعلى جميع الأنبياء صلوات الله وسلامه -. فهذا كله يبين أن الأمر لا ينال بمجرد الدعاوى بل لابد من وجود حقيقة الاتباع والالتزام بسنة النبي ﷺ .

هؤلاء النفر الذين أتوا إلى بيت النبي - عليه الصلاة والسلام - وسألوا عن عبادته اسأل هنا ما سر هذا السؤال؟ رغبة في الخير؛ يريد أن ينظر في عمل النبي ﷺ الذي هو القدوة ، فنظر في عمله فوجده بظنه قليلاً فالتزم لنفسه صلاة أكثر وصياماً أكثر من باب حرصه على الخير وحرصه على العبادة ، فالذي وُجد منهم صلاة وصيام ، والذي قاله النبي ﷺ في حقهم ((من رغب عن سنتي فليس مني)) ، صلاة وصيام ونبينا ﷺ يقول ((من رغب عن سنتي فليس مني)) !! هذا يدلنا على أن الصيام والصلاة لابد أن يكون على السنة .

أحد السلف مرة رأى رجلاً يصلي متنفلاً بعد صلاة العصر فنهاه قال له ليس هذا وقت صلاة ، فقرأ الرجل في حقه قول الله تعالى ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى (٩) عَبْدًا إِذَا صَلَّى ﴾ [العلق: ٩-١٠] ؛ يعني تنهاني عن الصلاة والله يقول ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى (٩) عَبْدًا إِذَا صَلَّى ﴾ ؟ قال أنا لا أنهاك عن الصلاة ولكن أنهاك عن البدعة.

فالصلاة وهي صلاة - صلة بين الله وبين عبده - إذا كانت على المخالف للمشروع لا تكون من سنة النبي ﷺ بل تكون رغبة عن سنته ((ومن رغب عن سنتي يقول عليه الصلاة والسلام فليس مني))، ولهذا يجب على الإنسان أن يكون في صلاته وفي صيامه وفي ذكره لله وفي عباداته ملتزماً بهدي النبي الكريم - عليه الصلاة والسلام - ليكون من أوليائه ﷺ حقاً وصدقاً .

ثم قال المصنف رحمه الله معلقاً على الحديث الأخير : ((فتأمل)) أي تفكر وتدبر في هذا الأمر ينفعك الله به .

((تأمل إذا كان بعض الصحابة أراد التبتل للعبادة)) ومعنى التبتل : أي الانقطاع للعبادة وشغل الوقت كله بها ، يعني ليس عنده وقت إلا للعبادة ؛ لا يأكل لحم وذاك لا ينام وذاك لا يفطر وذاك لا يتزوج أراد أن يتبتل أن ينقطع للعبادة ((قيل فيه هذا الكلام الغليظ وُسْمِي فعله رغوباً عن السنة)) أي رغبة عنها وعدولاً عنها، سُمِي فعلهم رغبة عن السنة وقال فيهم النبي ﷺ هذا القول الغليظ ((فمن رغب عن سنتي ليس مني)) يعني من كان على هذا النهج .

وتأمل مرة ثانية : يصلي باجتهاد ويصوم باجتهاد والنبي ﷺ يقول ((ليس مني)) ، ويقول ((من رغب عن سنتي)) !! فتبين بهذا أنه لا بد من وجود حقيقة الإسلام وهي الاستسلام لله بالتوحيد والانقياد له بالطاعة واتباع النبي الكريم - عليه الصلاة والسلام - ولزوم ما جاء به ، ولهذا قال العلماء لا يُقبل من الإنسان دينه وعمله إلا بشرطين : إخلاص العمل لله ، وموافقة العمل لسنة

رسول الله ﷺ ، وقد جمع الله بينهما في قوله ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠] .

قال الفضيل ابن عياض - رحمه الله - في قوله تعالى ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ : أخلصه وأصوبه، قيل يا أبا علي وما أخلصه وأصوبه ؟ قال : إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يُقبل ، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يُقبل حتى يكون خالصاً صواباً ، والخالص ما كان لله والصواب ما كان على السنة .

قال المصنف رحمه الله : ((فما ظنك بغير هذا من البدع ؟ وما ظنك بغير الصحابة ؟)) ؛ أمرين ينبه عليهما - رحمه الله - :

■ الأمر الأول : يقول ((فما ظنك بغير هذا من البدع ؟)) ؛ الصلاة والصيام عبادات مشروعة لكن الصفة التي التزمها هؤلاء لأداء هذه العبادات ليست مشروعة وهي أن يصوم ولا يفطر والآخر يصلي ولا ينام ، مع أن الصلاة من حيث هي مشروعة والصيام أيضاً مشروع ، والابتداع الذي وجد هنا في هذا العمل يسمى بدعة إضافية ، وقد مر معنا أن البدعة تنقسم إلى قسمين : بدعة إضافية وبدعة حقيقية ، فإذا كان النبي ﷺ قال هذا في حق هؤلاء الذين أرادوا فعل أمر مشروع ولكنهم أضافوا وزادوا فيه على المشروع وأتوا فيه بأمر غير مشروع فكيف بمن جاء ببدعة حقيقية ليس لها أصل في الشرع واجتهد فيها وحافظ عليها !! مثل من يُحيون ليالي بمسميات معينة - ليلة كذا وليلة كذا - يحيونها بأعمال لا دليل عندهم على مشروعيتها الإحياء ولا على وقته ولا أيضاً على الأعمال التي يمارسونها في ذلك الإحياء لتلك الليالي ، فهي بدع حقيقية ويجتهدون فيها ، إذا كان النبي ﷺ قال في حق من قال : أصوم ولا أفطر ، وحق من قال : أصلي ولا أنام ((من رغب عن سنتي فليس مني)) فكيف بمن يأتي بأمور لا أصل لها في الشرع ولا وجود لها في الشرع لا في وقتها ولا في حقيقتها ولا في الأعمال التي تمارس فيها !! فالمصنف ينبه

على هذه الفائدة ؛ يقول إذا كان النبي ﷺ قال هذا في أعمالٍ هي مشروعة في الأصل فكيف بمن جاء بأعمال لا أصل لها في الشرع محدثة من أساسها في صفتها وفي كيفيتها وفي وقتها ثم يفعلها متقرباً بها إلى الله !! إذا كان النبي ﷺ قال في أولئك ((من رغب عن سنتي)) فماذا يقال في هؤلاء؟.

■ الثاني : قال ((وما ظنك بغير الصحابة ؟)) فالذين قال أحدهم أصوم ولا أفطر ، والثاني قال أصلي ولا أنام إلى آخره هؤلاء من الصحابة ولكنهم أخطئوا من باب شدة الحرص والرغبة في الخير ونبههم النبي - عليه الصلاة والسلام - على هذا الخطأ وبيّن أنه رغوب عن السنة وأن من كان كذلك فليس من النبي ﷺ والذي يُظن أن هؤلاء بلغهم هذا التوجيه وعدّلوا عن هذا الأمر الذي توجهوا إليه من باب الرغبة ورجعوا إلى ما وجههم إليه النبي عليه الصلاة والسلام . فإذا كان النبي ﷺ قال هذا في حق بعض الصحابة فكيف بمن هو ليس من الصحابة !! ، فهذه لفظة عظيمة ينه لها المصنف - رحمه الله - وكأنه يقول لك اتق الله وانتبه ؛ ولا تتقرب إلا إلى الله مخلصاً له الدين ، ولا تتقرب إلى الله إلا بما شرعه الله لك .

■ فمن لم يجعل تقربه لله خالصاً لم يُقبل منه عمل ، قال الله تعالى في الحديث القدسي ((أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءَ عَنِ الشُّرْكِ ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِيَ غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكُهُ))^(٩) .

■ ومن تقرب إلى الله بغير ما شرع لم يُقبل منه ، قال النبي ﷺ ((مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ))^(١٠) أي مردود على صاحبه .

فالواجب على المسلم أن يجتهد في تحقيق حقيقة الإسلام بالإخلاص للمعبود والمتابعة للرسول ﷺ .

(٩) رواه مسلم (٢٩٨٥) .

(١٠) أخرجه مسلم (١٧١٨) .

اللهم اجعل أعمالنا لك خالصة ولسنة نبيك ﷺ موافقة ، واهدنا إليك صراطا مستقيما ، ولا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين ، وأصلح لنا شأننا كله ، اللهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا ، وأصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا ، وأصلح لنا آخرتنا التي فيها معادنا ، واجعل الحياة زيادةً لنا في كل خير والموت راحة لنا من كل شر ، اللهم اغفر لنا ولوالدينا وللمسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات الأحياء منهم والأموات ، اللهم زينا بزينة الإيمان واجعلنا هداة مهتدين ، اللهم أحيينا مسلمين وتوفنا مؤمنين غير ضالين ولا مضلين . وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

وصلّى الله وسلّم على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين .